الباب الثالث عشر

الأحلام

لعل كشفًا من كشوف التحليل النفسانى لم يلفت الأنظار كما لفته كشف فرويد لحقيقة الأحلام ووظيفتها العقلية .

وذلك أن الأحلام وما يحيط بها من الغرابة ، قد لفتت نظر الانسان منذ القدم ، وقد كان جو الغموض والرهبة اللذين يحيطان بها مما يزيد فى تفكيره فى شأنها .

وقد نسبها الإنسان حينا للشيطان ، وحينا لأرواح الموتى ، ولكنه فهم منذ القدم أن لها وظيفة وأنها لم توجد فى حياة الانسان عبثا .

وقد فُهمت وظيفتها على أنها التنبؤ بالمستقبل وما فيه من مخبئات ، ولذلك كان تفسير الأحلام مبنيا على كونها تحمل فى طياتها معنى خبيئا يشير الى المستقبل المجهول .

وقد أتى العلم الحديث فألقى بظل من الشك على هذه النظرة ، وقام كثير من الباحثين بتجارب فى الأحلام ، ووصلوا الى نتائج تتلخص فى أن الأحلام نتيجة لمؤثرات حسية معينة ، وعلى ذلك فليست لها أهمية ما ، لأن طبيعتها تتوقف على طبيعة المؤثر الذى أثارها سواء أكان هذا عطشا يصيب الانسان وهو نائم ، أو ضغطا على القلب من جراء أكلة مُتخمة قبل النوم ، أو صوتا وصل الى سمعه وهو نائم فلم يوقظه ، ولكنه أثار عنده سلسلة من الأحلام ، وكذلك سقطت الأحلام فى نظر الباحثين عن مكانتها الأولى وبقى الاعتقاد فى القدرة على التنبؤ بواسطتها من نصيب أولئك الذين يؤثرون البقاء على القديم .

وعندما بدأ فرويد فى بحث نظرياته ، قادته بحوثه الى ميدان الأحلام ، فقد وجد أن أعراض الاضطرابات العصبية تصحبها أنواع من الأحلام لفتت

نظره لما بدا فيها من أثر نفس الحيل التى تكيّف الأعراض العصبية . فبدأ فى دراستها ، وما لبث أن رأى صلتها الوثيقة بالحياة اللاشعورية ، وهى بالنسبة للتحليل النفسى كنز ثمين ، كلما تعمقنا فيه عثرنا على النفيس من اللُّقيا ، واستطعنا أن نلقى الضوء على مكنونات اللاشعور ومحتوياته المخفية ، فهو كما قال فرويد بحق : الطريق السلطانى الى مكامن اللاشعور .

ذلك لأن اللاشعور كما علمنا من قبل ، زاخر بالنزعات والرغبات المكبوتة ، التى " تكدح " فى سبيل الاشباع — وهذه النزعات كما رأينا لا تجد السبيل هينا ، فتحتال على الظهور متخفية مقنعة ، فى صور شائهة ، تخفى مظاهرها ، وان كانت تبطن معانيها . وساعات النوم من تلك الأوقات التى يغفل فيها الرقيب نوعا ما ، لأن الشعور يصبح فى حالة خمول يكاد يكون تاما ، فتنتهز هذه الرغبات فرصة الغفلة ، وتترى زرافات ووحدانا ، تريد أن تظهر فى الشعور لتعبّر عن نفسها ، ولكن هذا الفيض من الرغبات المكبوتة لو سمح له بأن يهمى لما بقى للنوم أثر ، والرقابة لا تندثر أثناء النوم وإنما تغفل كما قلنا ، ويبقى أثر منها ، وعلى ذلك فان هذه الرغبات تمر فى صور مزيفة ملتوية غامضة ، أكثر زيفا والتواء وغموضا مما تستطيع أن تفعل فى حالة اليقظة ، وذلك لأن الشعور اليقظ لا يحتملها ، بينما يحتملها الشعور النائم ، فتظهر الأحلام فى تلك الصور الغريبة ، البعيدة عن كل منطق أو مألوف ، إذ تتوالى فيها الحوادث والأشياء ضد كل منطق أو قانون ، ويغلب عليها التفكك والغموض .

وكثيرا ما يصحب الأحلام شعور بالقلق ، والخوف الشديد جدا ، الذى لا يكاد يوجد له نظير فى حياتنا الشعورية ، لشدته من جهة ، ولتفاهة الداعى اليه — فى الحلم — من جهة أخرى ، فهو أشبه بمخاوف الأطفال ، وهذا هو الشعور المعروف " بالكابوس " ، وهو مظهر من مظاهر تدافع الرغبات ، والحاحها فى الظهور والتعبير عن نفسها ، وينتهى الأمر غالبا فى هذه الأحوال بأن يُستدعى الشعور فجأة للتغلب على هذه الرغبات ، فيهب الانسان من نومه مذعورا وهو منقبض قلق .

وكثيرا ما ترتبط الصور التى تبدو فى الحلم بمؤثرات مشتقة من حياتنا اليومية ، فتحوى عناصر مما مر بنا فى اليوم السابق ، أو أى وقت ماض ، وعناصر أخرى

من الأفكار التي تهمنا أو تقلقنا، أو من المؤثرات التي تصل الينا أثناء النوم نفسه، خصوصا اذا كانت هذه المؤثرات من الشدة وكانت تلك الأفكار من الأهمية، بحيث تهدد بزوال النوم كطرق شديد، أو صوت جرس عال أو طلقات مدفع، أو هبوب عاصفة، أو برودة بغائية، أو ألم داخلي في المعدة أو الأضراس، فيكون للحلم وظيفة الاحتفاظ بالنوم والوقاية من اليقظة. فكأنه يحيل المؤثرات الحسية أو الفكرية مع النزعات والرغبات المكبوتة، الى صور يحتملها النائم بقدر الامكان، فتدخل في شعوره بالقدر والكيفية التي لا تدعو الى ايقاظه. ولكنها لا تنجح في ذلك دائما بطبيعة الحال.

وللحلم "مضمونه الظاهر (١)" كما يسميه فرويد وهو ما ورد فيه من الصور والحوادث والأشخاص التي يحكيها الحالم، ولكن هذه تعتبر رموزا يخفي وراءه حقيقة الدوافع الكامنة وراء الحلم، ومجموع هذه الدوافع هو ما اطلق عليه "المضمون الكامن" (٢) للحلم.

ويحدث ذلك عن طريق "الرمز (٣)" فالشخص الذي يرد في الحلم لا يجب أن يؤخذ على علاته، فقد يكون رمزا لشخص آخر، وكذلك الأشياء والحوادث فهي لا تعني ما تشير اليه في الظاهر، بل تعني ما تشير اليه بطريق الرمز.

ولكي نوضح هذه النقطة نورد مثالين مأخوذين من فرويد "محاضرات في مبادىء التحليل النفسي".

١ — "مريض رأى حلما طويلا ورد فيه أنه رأى عددا يذكر من أفراد عائلته يجلسون حول مائدة ذات شكل خاص" (٤).

وعند التحليل وسؤال المريض عما تذكره به الأشياء الواردة في الحلم، قال إن المائدة تذكره بمائدة أخرى رآها في منزل إحدى العائلات المعروفة له.

وعند ما سئل عن هذه العائلة، أجاب بأن رب العائلة يعامل ابنه بنفس المعاملة التي يعامله بها أبوه.

---

(١) Manifest Content (٢) Latent Content (٣) Symbolism

(٤) Freud: Introductory Lectures to Psycho-Analysis, 1940, p. 98 etc.

وعلى ذلك فالمضمون الكامن للحلم هو " ان أبى يعاملنى كما يعامل تشلر — اسم رب العائلة — ابنه " .

ومن الغريب أن اسم العائلة "تشلر" مشتق من اسم (المائدة) فى الألمانية[1] وعلى ذلك فيكون الحلم قد جعل عائلة المريض تجلس الى مائدة مشتقة اسما وشكلا من العائلة الأخرى لكى يعبر عن الفكرة الكامنة .

٢ — شخص آخر رأى فى المنام أنه كان مع الآنسة (س) وهى فتاة كانت تعمل سكرتيرة " لمهندس " عجوز قادم من الخارج وكان قد قرن معه فى أيام تلمذته وكانا يركبان عربة من نوع معين وعندما وقفت العربة أمام باب حديدى ، أبلغهما شخص آخر (ص) أن المهندس العجوز قد توفى فأظهرت الفتاة علامات الجزع — وكانت وظيفة سكرتيرة — فى الحلم — مختلطة بوظيفة زوجة ، وفجأة وجد نفسه مرغما على أن يتخذها زوجة كما لو كان ذلك أمرا لا مناص منه ، وعند سؤاله عما يتذكره حول الحلم وجد ما يأتى :

(ا) أنه كان يعرف سيدة أخرى تشبه الأولى فى أنها أجنبية وفى الشكل العام للجسم ، وقد ركب معها مرة عربة من هذا النوع فى حين أنه لم يركب مثل هذه العربة مع السكرتيرة .

(ب) أن هذه السيدة متزوجة بصديق له مهندس وهو (ص) وهو الذى قابله فى الحلم وذكر لهم أن المهندس العجوز قد توفى .

(ج) أن هذه السيدة تقوم بعمل يشبه من بعض الوجوه العمل الذى كانت تقوم به الآنسة (س) فتساعد زوجها فى بعض الأحيان .

وعلى ذلك فهذا الحلم قد حقق رغبة لاشعورية هى الزواج من السيدة (س) بعد أن تغلب على جميع العقبات التى يقيمها العرف والخلق فى سبيل ذلك ، وذلك بأن رمز لها (بالآنسة) السكرتيرة ، بعد أن خلط بين وظيفة سكرتيرة ووظيفة زوجة — ثم جعل الإذن بالزواج يصدر بطريق غير مباشر من زوج (ص) إذ أنه هو الذى ذكر لهما خبر وفاة المهندس العجوز وبذلك امتنع الشك ، وبقيت علامات ضئيلة هى التى أنارت طريق التحليل وهى العربة وشكل الباب الحديدى ومهنة

---

(١) Tisch: المائدة

كل من الزوجة والسكرتيرة ، ثم الشبهُ الطبيعى بينهما ، وجعلَ الزواجُ شبهَ واجب ، حتى يدفع أقل شبهة فى رغبته فيه من قبل ، إذ كان كل ذلك مفاجئا له فى الحلم .

٣ — سيدة كانت تحلم مرارا بأن الله يلبس قبعة بيضاء مدببة من الورق[1] .

وقد ظهر من التحليل أنها وهى طفلة كانت دائمة النظر إلى الجوانب عندما تكون على المائدة لترى هل أخذ أخوتها نصيبا أكبر من نصيبها من الطعام ، وحاول أهلها أن يجعلوها تقلع عن ذلك فلم يستطيعوا ، فصنعوا لها قبعة من الورق تمنعها من رؤية الجوانب فلا ترى إلا ما أمامها .

ولكن الرغبة فى معرفة ما أخذ إخوتها ، ظلت على إلحاحها ، وانتهت بأن كُبتت ولكنها حققتها فى أحلامها ، لأن الله يعلم كل شى وهو يلبس قبعة مدببة من الورق ، فهى إذن تعلم كل شىء وتعلم نصيب إخوتها من الطعام . فأصبحت القبعة فى الحلم مساعدا لا عائقا فى سبيل المعرفة التى تتحرق اليها .

وهكذا نرى أن الحلم هو طريق لتحقيق هذه الرغبات عن طريق الرمز تحقيقا خياليا . وأن المضمون الكامن هو الأهم بينما المضمون الظاهر ليس إلا غلالة تغطى هذا المضمون ، وتخفيه عن الحالم نفسه .

والتحليل يظهر فى الأحلام كل الحيل اللاشعورية ، من تبرير وتكثيف وإلصاق وابدال . . . . الخ .

٤ — سيدة توفى والدها وقد رأت فى المنام كأنها فى مستشفى وكأن والدها مريض فى هذا المستشفى ، و بينما هى واقفة تنتظر أخبارا عن صحته اذا بشيخ كبير يلبس عمامة ويمسك (بيرقا) يأتى اليها و يقول : إنه أى (والدها) ذهب إلى المكان الذى فيه (أكوام أكوام) ، وقالت إنها قامت من النوم وهى تشعر بشعور قوى من الراحة العقلية والرضاء النفسى .

و بالتحليل وجد أن والدها ينتسب إلى عائلة دينية معروفة ، وأنه قبل أن يموت طلب أن يدفن فى مدافن آبائه ، ولكنه بعد أن مات فعلا دُفن فى مدافن عائلة زوجته ، وكانت ابنته (وهى الحالمة) تعارض فى ذلك . أما المكان الذى

---

(1) Introd. Lect. etc...p 98.

فيه (أكوام أكوام) فقد تذكرت أن لها عما مات قبل والدها، وقد وصف لها مدافن عائلة الأب بأنها أرض فيها أكوام أكوام ، ولما مات العم دفن فى هذه المدافن .

فكأن الشخص الدينى لابس العمامة هو الأب نفسه ، وكأن الدفن قد حدث فعلا طبقا لرغبة الأب وذلك هو السر فى شعور الراحة والرضى الذى شعرت به عند استيقاظها .

٥ — فتاة متعلمة تعليما عاليا مصابة بهستريا تحوّلية [1] وقد ظهر أن الأعراض عندها ترجع إلى أسباب جنسية ، وتتميز حياتها بالكبت من هذه الناحية ، فهى لم تستطع بتاتا أن تفكر فى قبول عروض الزواج المختلفة التى عرضت عليها ، وهى تحاول أن تبنى مستقبلها على عدم الزواج ، وقد رأت الحلم الآتى بنصه كما قصته على طبيبها :

رأيتُ أنى أسير مع فتاة تسكن بجوارنا وإذا نحن أمام حديقة ... ... وهناك جمع كبير من الناس داخل الحديقة . وقد تساءلنا عن سبب تجمع هؤلاء الناس فقيل إن هناك ثعبانا كبيرا . وبينما أنا واقفة أنا وزميلتى ، إذا بالثعبان يترك الزحام وإذا به ينزل من فوق شجرة مجاورة لنا تماما ويتجه الينا ، وكان ثعبانا ضخما يشبه تلك التى فى حديقة الحيوانات ، ففزعت فزعا شديدا ولكن زميلتى قالت لا تخافى انظرى : وأمسكت برأس الثعبان وفتحت فمه وقالت انظرى ، إن هذا (الكيس) يحتوى على "الحلو بصلة" التى بها السم فاذا نزعناه هكذا ... — ونزعته بيدها — أصبح الثعبان غير قادر على الحاق الأذى بأحد . . وتركت الثعبان بعد ذلك فاتجه إلى شجرة أخرى وصعد عليها . وبالرغم من أننى أطمأننت بعض الاطمئنان فانى بقيت خائفة وقلت لها إننى لن أدخل هذه الحديقة مرة أخرى واستيقظت من نومى مذعورة .

والرمز بالثعبان رمز جنسى واضح ، ولكن ظروف الحلم نفسها كانت من الوضوح بحيث لا تدع مجالا للشك فى تفسيره . فقد سألها الطبيب عن الفتاة المرافقة لها

---

(1) Conversion Hysteria

فقالت فى مبدأ الأمر إنها مجرد جارة ، ثم عادت وأضافت أنها فتاة مخطوبة وسوف تتزوج . . . " لاحظ اطمئنانها إلى الثعبان فى الحلم " ثم سألها الطبيب عن نوع الدراسة العلمية التى درستها فقالت إنها درست الحيوان والفسيولوجيا: فسألها هل درست الزواحف بالذات؟ فقالت نعم . . فقال لها هل تذكرين أن الجزء الذى يحتوى السم فى فم الثعبان يطلق عليه اسم (حويصلة) فقالت لا ! ولكنى لا أذكر اسمه الآن . . . . وبعد قليل سألها هل أنت متأكدة أنه لا يسمى حويصلة ؟ قالت نعم إنى متأكدة ولكنى لا أذكر اسمه الحقيق . فسألها ما هى الأشياء التى تذكرها بها كلمة حويصلة؟ قالت بعد تردد (الحويصلة المنوية)... وعند ذلك ذكر لها أن الكلمة التى تطلق على الجزء الذى يفرز السم فى الثعبان هو (الغدة) وليس الحويصلة فوافقت .

والرمز هنا واضح لا يحتاج إلى تفسير فقد يرمز اللاشعور بالثعبان إلى العضو التناسلى تفاديا للحرج الذى يصيب الشعور إذا أظهر هـذا بمظهره الحقيق ، وجعل من السهل على الحالمة أن تفسر الخوف الذى أصابها فى الحلم بأنه خوف من الثعبان بينما هو فى الواقع خوف مرتبط بالدافع اللاشعورى . ولكن الذى نم عن حقيقة الرمز أمران : (الأول) وجود الفتاة التى على وشك الزواج وعدم خوفها من " الثعبان " بل ومحاولتها اقناع الحالمة بإمكان انتفاء الضرر منه . (والثانى) تعبيرها عن الغـــدة بذلك اللفظ الذى دل على حقيقة الأمر وهو " الحويصلة " بدل اللفظ الحقيق وهو الغدة .